

الاستعمار الداخلي

يبدو التساؤل عن استعمار داخلي منطقياً إلى حد كبير، خاصة بعد عقود من التحرر من الاستعمار الاستيطاني في دول ما زالت شعوبها لا تشعر بالخلاص منه ومن مورثه، ولذلك يكون التساؤل عن قدرة مدرسة الاستعمار الاستيطاني على تفسير ظاهرة الاستعمار الداخلي منطقياً..

وفي ظل الحديث عن علاقة الدولة الحديثة والاستعمار الاستيطاني لا بد من التعرّيج على تعريف مصطلح الاستعمار الجديد والذي يسعى لتفسير ظاهرة استغلال الدول الاستعمارية لمستعمراتها السابقة ولكنه لا يفصل كثيراً في ممارسات استعمار داخلي ضمن الدولة الحديثة.

باعترافي ان مدرسة الاستعمار الاستيطاني مدرسة فكرية متطورة تسعى لمواكبة تفسير ما يستجد وهي مقارنة بغيرها من مدارس العلوم الاجتماعية مدرسة جديدة، وليس ادل على ذلك من انه فقط في عام 2010 تم تاسيس مجلة دراسات الاستعمار الاستيطاني، لذا وان لم تصل هذه المدرسة الى وضع اطار نظري متكامل لدراسة ظاهرة الاستعمار الداخلي، او اطار تحليلي شامل لما بات يسمى الاستعمار الداخلي، فانها تحتوي على الكثير من المحاولات من قبل مجموعة من المفكرين لتحليل ودراسة الظاهرة وهو ما سحاول الاجابة عليه من خلال الاسطر القادمة.

وهنا لا بد من التعرض لتعريف انماط مستجدة من الاستعمار، كالأستعمار الجديد الذي يعرف على انه الاستغلال للراسمالية والعولمة للتاثير على بلد نام بدلا من استخدام الاساليب الاستعمارية السابقة للسيطرة العسكرية المباشرة (الامبريالية) او السيطرة السياسية الغير مباشرة (الهيمنة). ظهر مصطلح الاستعمار الجديد على لسان الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر، ونوقشت

فكرة الاستعمار الجديد من قبل مفكرين غربيين مثل سارتر 1956¹ ونعوم تشومسكي 1979².

بينما يقوم باتريك وولف بالمقارنة التالية مبينا الفرق بين الاستعمار الاستيطاني وما سماه بالاستعمار الاستغلالي «على العكس من التشكيلات الاستعمارية [الاستغلالية]... فان المستعمرات الاستيطانية لم تتأسس بالدرجة الأولى بهدف استخلاص القيمة الزائدة من عمل السكان الأصليين. وإنما تقوم على فرضية إزالة السكان الأصليين عن (أو نقلهم من) أرضهم». حيث يهدف الاستعمار الاستيطاني الى الحصول على الارض، بينما يريد الاستعمار الاستغلالي الحصول على فائض قوة العمل الناتج من جهد السكان الاصلايين، ويميز فيراسيني بين المستعمر الذي يقول "انت اعمل لدي" وبين المستعمر الذي يقول "انت ارحل من هنا" لتترك لي الارض فارغة³.

اما الاستعمار الداخلي فهو مصطلح استخدم لأول مرة في كتابات مفكري أميركا اللاتينية لوصف العلاقة بين النخب الحاكمة والشعوب التي تحكمها. ووصفت العلاقة الأساسية بأنها استعمارية نظراً إلى طبيعتها الاستغلالية التي لا تختلف عن العلاقة بين الدول الاستعمارية والشعوب المستعمرة. فالنخب الحاكمة تتحكم في مؤسسات الدولة وتسخرها لتحقيق مصالحها الخاصة غير مكترثة بحال الشعوب الفقيرة المحرومة. تتحكم هذه النخب بالاقتصاد والتجارة، وتستخدم الجيش والأمن لقمع الأصوات المعارضة ومنع قيام حركات سياسية منافسة، بعيداً عن كل الأطر القانونية. وبينما تعاني الشعوب تدهوراً أمنياً واقتصادياً، تعيش النخب في مجمعات سكنية محصنة، وترسل أولادها إلى مدارس خاصة، وتتمتع بالخدمات الرئيسية والكمالية، غير مكترثة لواقع الغالبية السكانية.

¹Sartre, Jean-Paul (2001) ، [Colonialism and Neocolonialism](#) ، Psychology Press ، ISBN 978-0-415-19146-

² Chomsky, Noam؛ Herman, Edward S. (1979) ، [The Washington Connection and Third World Fascism](#) ، Black Rose Books Ltd. 42 ص. ff ، ISBN 978-0-919618-88-

³ <https://bit.ly/3O95W6q>

هذا النموذج الاستعماري برز في العالم العربي ودول العالم الثالث في صورة أكثر استغلالاً وقبحاً. بدأت معالمه تظهر في باكستان في السبعينيات، حيث يمتلك الجيش الحظ الأكبر من الميزانية الوطنية، وينافس القطاع الخاص في المشاريع التجارية والصناعية، وتعيش أسر ضباطه في تجمعات سكنية معزولة عن الشعب، ويتلقى أبنائه التعليم الخاص والبعثات الدراسية، بينما تعاني غالبية السكان من الظروف المعيشية الصعبة، مع غياب الخدمات وضعف مستوى التدريس وغياب الخدمات الصحية. وهو نفس النموذج الذي يعيشه المصريون اليوم واقعا، او ما تحياه العديد من شعوب افريقيا وجنوب شرق اسيا وبعض دول امريكا الجنوبية.

فهل يعد ما بعد الاستعمار حالة استعمار بحد ذاتها ولكن بصورة أخرى؟ هل يمكن قراءة حركات التحرر من الاستعمار " حالة ما بعد الاستعمار" كجزء من المنظومة الاستعمارية التقليدية ولكن من خلال تحولات الحداثة التي مرت بها والتي أدت إلى اختلاف أدواتها وصورها؟ وأنه في الواقع ما زالت علاقات القوة والهيمنة موجودة كبنية تحتية ولكن بأشكال جديدة؟ وأن التحرر لا يعد تحرر في ظل وجود حالة التبعية والهيمنة الغير مباشرة؟ أو كيف يمكن قراءة أشكال الاستعمار من خلال قراءة تحولات الحداثة وما بعد الحداثة كحاضنة عملت على اختلاف الأشكال التقليدية من السلطة والهيمنة " ومراكز القوة العالمية".

ينشأ الاستعمار الداخلي عن شعور عام بامتلاك قوة غاشمة لم تعتد أن تكون مسؤولة أو موضع مراجعة دائمة من جانب مؤسسات المجتمع أو الدولة. ويرتبط بالقوة شعور آخر قوي للغاية ويتم التحدث عنه ببساطة بين أبناء هذه الطبقة، وهي " عقيدة امتلاك الدولة".

هذه الطبقة، إذًا، لا تقبل أي منازعة على الإطلاق فيما يخص "عقيدة الملكية" هذه، فحتى المساعدون المدنيون الكبار للسلطة العسكرية والبوليسية، ومهما

علا شأنهم، يجب أن "يلزموا حدودهم" ودورهم وهو خدمة طبقة كسبت البلد بالقوة وتحافظ عليه لها وحدها بالقوة.

وييدي باتريك وولف اهتماما كبيرا بنتائج وعواقب الاستعمار واثاره، خاصة فيما يتعلق بجنوحه المستمر نحو سحق حقوق الانسان والتنكر لها، ويستخدم وولف مفردتي الاستيطان والاستعمار بالمعنى ذاته، مؤكدا ان افضل طريقة لفهم الاستعمار الاستيطاني هي ان لانظر الية كحادث، بل باعتباره بنية وعملية تمتد عبر الزمن⁴.

بينما يأتي فيراسيني على توضيح وتبيان الظواهر الاستعمارية، موضحا الفروقات بين الاستعمار والاستعمار الاستيطاني، خاصة فيما يتعلق بالظواهر الاجتماعية التي يفرزها الاستعمار، والتي تعيد انتاج نفسها بالشكل الذي تحافظ فيه على عدم المساواة بين المستعمر والمستعمّر، في المقابل، في الاستعمار الاستيطاني، يسعى المستوطنون لمحو الذات المستعمّرة وليس انتاج علاقات غير متكافئة بينهما. صحيح أن الاستعمار الاستيطاني والاستعمار لا مناص من تشابكهما، إلا أنهما مختلفان في طبيعتهما التي تفرز اختلافات جوهرية بينهما، لكنهما يسعيان دوما للتحكم بالزمان والمكان⁵.

يفترض ايشيل امبيمي أن لا مستقبل مفصول لحالة ما بعد الاستعمار عن كل الحثيات التي تتعلق بحالة الاستعمار نفسها . بمعنى أنه يشكك وي طرح تساؤل مهم حول شكل حياة المجتمع ما بعد الاستعمار وقدرته على الانفصال التام عن شكل الحياة أثناء الاستعمار نفسه. فهو يعتقد أن المستقبل غير مفصول عن

⁴ Patrick Wolfe: «Structure and Event: Settler Colonialism, Time, and the Question of Genocide,» in: A. Dirk Moses, ed., Empire, Colony, Genocide: Conquest, Occupation, and Subaltern Resistance in World History, Studies on War and Genocide; v. 12 (New York: Berghahn Books, 2008), p. 123, and «Palestine, Project Europe and the (un-)Making of the New Jew: In memory of Edward W. Said,» in: Ned Curthoys and Debjani Ganguly, eds., Edward Said: The Legacy of a Public Intellectual (Carlton, Victoria : Melbourne University Press, 2007), pp. 313-349.

⁵<https://bit.ly/3O95W6q>

الماضي بتاتاً وتحديداً في حالة الاستعمار الذي انتهى بشكل طوعي وسلمي وليس بالقوة ، وهنا يمكننا الاستشهاد بحالة الاستعمار الفرنسي في الجزائر، من خلال تفكيكنا لشكل الحياة للجزائريين بعد انتهاء الاستعمار الفرنسي.⁶

إذ أن كل تكوينات وتمثيلات حياة ما بعد الاستعمار في الجزائر تعكس بشكل أو بآخر تأثيرها المباشر وغير المباشر بالاستعمار الفرنسي في كل مناحي الحياة وهذا ما أطلق عليه امبيمي اسم (هيمنة بلا هيمنة)، فما بعد الاستعمار هو نتاج الاستعمار بشكل علاقاته وتشكيلاته وبنية المجتمع والتقسيمات والتبعيات التي خلفها بعده، وبذلك يحاول امبيمي فحص "ما بعد الاستعمار" بإعادة قراءته مرة أخرى بصورة لا تتوقف عند كونه مجرد حدث تاريخي حصل عبر التحرر من حالة الاستعمار، وهنا ينتقد اعتبارها حالة عابرة في التاريخ " كمجرد حدث"، ويربطه في سلوك ونفوس الأفراد في سعيهم نحو الحداثة التي مثلت حالة بنيت على أساسها الرغبة في التحرر ومواكبة موجة الحضارة والتقدم.

وبالتالي فقد كان الاعتقاد بان تفكيك منظومة الاستعمار سيسمح بالضرورة للمجتمعات المستعمرة ان تطور قيمها الاصلية الخاصة بها ضمن السياق الطبيعي، أي إننا نتكلم هنا عن توظيف المستقبل في معركة تفكيك المنظومة الاستعمارية، لكن امبيمي يوضح ان ممارسة الاستعمار أدت بالضرورة إلى مصادرة مستقبل المجتمعات المستعمرة والتي مُنعت من التطور الطبيعي، وأصبح تطورها يسير نحو المستعمر المُعجَب به، او تطور يدور في فلكه، وكأن الاستعمار وموروثاته بقيت راسخة في العقل الجمعي لتلك المجتمعات.

يحاول مفكر اخر هو سكوت مورغنسون موضحة الدولة الحديثة في الاطار التحليلي للاستعمار الاستيطاني، فيدمج مورغنسن بين مقولات أساسية في الاستعمار الاستيطاني مثل "منطق الاقصاء" لباتريك وولف وآليات التحكم و"الإبادة" التي توظفها الأنظمة الاستعمارية لتفعيل هذا المنطق، بينما تحتل

⁶ Achille Mbembe, (2021). "Introduction" from Out of the Dark Night: Essays on Decolonization. New York: Columbia University Press.

الدولة الحديثة موقعًا أساسيًا في هذا الطرح، حتى تلك الخارجة من قبضة الاستعمار، فهي مشرعة القوانين، وواضحة السياسات الاقتصادية والثقافية، والتي بدورها تكون وسيلة لفرض السياسات الحيوية وتنفيذها⁷.

ما يقدمه مورغنسن في طرحه هذا، هو محاولة جيدة للاسهام في تقديم نموذج تحليلي عند معالجة موضوعات الاستعمار الاستيطاني، وهو المزج بين اهداف وشكل الاستعمار الاستيطاني في السيطرة والهيمنة، وبين أدوات الدولة الحديثة في التحكم وفرض السياسات. كما يشير مورغنسن إلى الطريقة التي يتم بها دمج القانون الغربي بالقوانين المحلية للسكان الأصليين، ولا يتوقف الأمر عند القوانين كما نعرفها، وإنما يتعداه لدمج بعض التصورات والتقاليد الأصلانية. ويبدو الأمر مثيرا للاستغراب كيف يقوم "النظام الاستعماري الداخلي"، باستدخال اهداف الاستعمار الاستيطاني، وعلاقات الهيمنة والسيطرة، ودمجها في نظام قانوني يحافظ عليها ويشرعها.

يقدم ايشيرو ازوما مساهمة اضافية في توسيع فهمنا للاستعمار الاستيطاني من خلال تحليل نموذج الاستعمار الاستيطاني الياباني، مضيفا الى فسيفساء الاستعمار لونا آخر، حيث يركز ازوما على تفكيك مفهوم الاستعمار الاستيطاني التكميلي والذي يقصد به ان الاستعمار الاستيطاني الياباني كان متكيفاً ظاهرياً، ومتغيراً ومتنوعاً نسبياً عبر المحيطات، والذي يغطي مساحات امبراطورية متعددة من خلال التنقل للمهاجرين، يقارن ازوما بين هذا النوع من الاستعمار الاستيطاني الذي لا يقوم بشكل مباشر على منطق الاقصاء الذي طرحه باتريك وولف، وإنما يقوم على فحص الاستعمار الاستيطاني الياباني باعتباره ايدولوجية قائمة على أساس التنمية خارج حدود اليابان.

اسهم ازوما بصورة جيدة في تسليط الضوء على الإمبريالية اليابانية من خلال ابراز الدور الصامت الذي يؤديه المهاجرون اليابانيون إلى الولايات المتحدة

Morgensen, S. L. (2011). The Biopolitics of Settler Colonialism: Right Here, Right Now. *Settler Colonial Studies*, 1(1), 52–76. <https://doi.org/10.1080/2201473X.2011.10648801>

في تشكيل الإمبراطورية الاستعمارية اليابانية، حيث قدم وصفًا منهجيًا وطموحًا لهذه العملية، موضحًا كيف أن بعض هؤلاء المهاجرين - المتعلمين وذوي المكانة الاجتماعية الأعلى - ظلوا مؤثرين في اليابان مع كل من الرأي العام والمسؤولين الحكوميين ، بينما شاركوا بشكل مباشر في العديد من المؤسسات في دعم السياسات التوسعية. يؤكد أزوما كيف أثر ذلك على المبادرات الموجهة ليس فقط للأراضي الاستعمارية الرسمية في كوريا وتايوان ومنشوريا ومانچو (البحار الجنوبية)، ولكن أيضًا إلى أماكن غير متوقعة مثل البرازيل والمكسيك، وقد ساعد ذلك في إنشاء تصورات جديدة حول الاستعمار الاستيطاني الياباني⁸.

يعود مورغنسن هذه المرة عبر الجنسية ليوضح علاقتها بالاستعمار الاستيطاني، وكيف يتم إعادة تنظيم الأرض والزمن في طرح إعادة الجنسية، تحديداً حول المثليين الذين يتم استعمارهم.

تشرب الاستعمار نزعات الدولة الحديثة في تصنيف المواطنين وترتيبهم، بهدف ضبطهم، وتمثل الهويات الجنسية إحدى هذه التصنيفات، فقراءة التحولات في تصنيفات الهويات في كل من كندا وإسرائيل، تمكننا من فهم عدة مستويات لا أدل منها على محاولة الاستعمار دائماً حيازة التعاريف الخاصة بمن يستعمرهم، فبينما فرض تصنيفات جنسانية على الأصليين في فترات زمنية مختلفة، أعادها في فترات زمنية أخرى، لكن من خلال منظومته وتصوراته وحساباته هذه المرة، وهو الأمر ذاته الذي تقوم به الدولة الحديثة اليوم، وربما ما يمكن أن تقوم به في المستقبل عبر إعادة تصنيف الناس مراراً وتكراراً، حسب رؤيتها فقط، أو حسب رؤية النخب الحاكمة فيها، فبالتالي ما عرفتته الدولة أنه غير شرعي في فترة ما، أعادت تعريفه بأنه شرعي في فترات زمنية أخرى.

⁸ Eiichiro Azuma, (2019). "Introduction" In Search of Our Frontier: Japanese America and Settler Colonialism in the Construction of Japan's Borderless Empire. Berkeley: University of California Press.

هذه العلاقة الشائكة بين حياة الدولة تعريف الاشيا والافراد والجماعات، تسلط الضوء على انه لا يمكن الفصل بين سياسات التصنيف والترتيب التي تتبعها الدولة الحديثة ونفس السياسات التي تتبعها الدول الإستعمارية.⁹

خاتمة

لا شك أنه يجب تطوير نظريات جديدة من الاستعمار الاستيطاني لفهم وتحليل السياسات الحديثة في الدول في عصر القرية الكونية، لا اعتقد ان الحقبة الاستعمارية قد انتهت بعد، ولا شك ان الاستعمار سيبقى يحاول إعادة موضعة ذاته عن طريق الانظمة العالمية -الاستعمار الرأسمالي العالمي- التي تمد سلطتها وتضفي عليها طابع طبيعيًا من خلال ضمان عولمة القانون الغربي. أن الاستعمار لم ينته من العالم مع زوال الامبراطوريات الاستعمارية خلال القرن العشرين، إنما فقط تمت إعادة تشكيله من خلال تعميم القانون الغربي، وضمان الحكم الليبرالي الذي عمل الاستعمار الاستيطاني على تعميمه. يمكن رؤية الاستعمار من خلال فهم ومعرفة وتحليل السياسات في الدولة الحديثة، ويعتبر الكاتب أن حالة ما بعد الاستعمار ما هي الا محاولة لتطبيع وتجنيس الحاضر الاستعماري الاستيطاني على أنه استعماري فقط، فيحجب بذلك فعل الاستعمار الاستيطاني الذي يمكن من خلاله نقد هذا الاستعمار.

أرى أن هؤلاء المفكرين عند نقطة ما يميلون لافتراض أن الحركة الاستعمارية، ناتجة عن نظام اقتصادي رأسمالي أدى لفرض هذه الحالات الاستعمارية، بالتالي هي حالة مستمرة تسير مع منطلق رأس المال الذي يسير مع الاستعمار والحدثة اللزومات لاستمراره.

⁹ Morgensen, S. L. (2012). Queer Settler Colonialism in Canada and Israel: Articulating Two-Spirit and Palestinian Queer Critiques. *Settler Colonial Studies*, 2(2), 167–190. <https://doi.org/10.1080/2201473X.2012.106488>

